

اقتصاديات الوقت

تبنى الإسلام رؤية فريدة لتعظيم الاستفادة من الوقت، حيث يقول النبي ﷺ ”نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ“، وهذا يعني أن الكثير من أوقاتنا تضيع بلا فائدة إلى أن تمر بنا السنين وتضيع ما بين أمل لم نجتهد لتحقيقه أو تسويق لا ينقطع، لذلك حرص الإسلام على ما يمكن أن نطلق عليه جدولة وقت المسلمين، سواء كانت هذه الجدولة على مدار اليوم أو كانت بشكل أسبوعي أو كانت بشكل فصلي أو موسمي، المهم أن وقت المسلم مقسم تقسيماً دقيقاً بصورة تمكنه من الاستفادة بكل جزء من أجزائه.

ويكفينا حتى نعلم أهمية الوقت في حياة المسلم أن نعلم أن الله تعالى أقسم به في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقد أقسم بالفجر والضحى وبالعصر، كما حذر من عاقبة إضاعة الوقت بلا هدف، حيث قال، موضحاً حال من مضى عمره دون أن يحقق الاستفادة المرجوة منه ”حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ“.

لذلك فإن الإسلام أهاب باتباعه اغتنام الفرص وعدم إضاعتهما أو التردد في استثمارها، لأن الفرصة قد تبدو متاحة أمام البعض لتحقيق إنجاز ما، لكن إما لثقة في النفس أو لشيء من التراخي تتفقت هذه الفرص وتضيع الأحلام، وتتحول الثقة في النفس - التي كادت في وقت ما أن تصل إلى درجة الغرور- إلى ما يشبه الإحباط، والإحساس بأنه لا فائدة مرجوة من كل المحاولات.

عند هذا الحد قد تحدث الإفاقة المقرونة بالرغبة في فتح صفحة جديدة لمراجعة الحسابات وترتيب الأوضاع، وقد يخدم الحظ هؤلاء عندما تكون الفرصة لم تزل قائمة بعد، أو بمعنى آخر تكون فرصة تصحيح الأوضاع لا تزال متاحة، وهو ما يعني إمكانية التعويض أو إمكانية المراجعة، لكن ماذا لو كانت الفرصة قد تبخرت وظفر الغير بما كان متاحا في اليد وأصبح اليوم بعيد المنال.

أعتقد أن الشعور بقيمة الفرصة سوف يتعاضم كلما تباعدت إمكانية الحصول عليها، وفي المقابل تتضاءل قيمة الإحساس بها طالما بقيت في متناول اليد، وهذه حقيقة إنسانية ثابتة، حيث غالبا لا يدرك الإنسان قيمة النعمة إلا عندما تسلب منه.

لا أقصد بذلك الإشارة إلى نعمة بعينها، ولكنها طبيعة عامة تشمل كل النعم، حتى أن البعض قال: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يشعر به إلا المرضى، وعلى ذلك فقس كل النعم، نعمة الاستقرار ونعمة المال ونعمة الأولاد ونعمة الراحة، إلى غير

ذلك من النعم الكثيرة التي قد تحل علينا دون أن نشعر بها إلا بعد أن تضيع من أيدينا.

دعونا نعيد البحث عن الأسباب التي قد تؤدي إلى هذه الحالة، والتي لا تبتعد كثيرا عما حددناه مسبقا، فهي إما أن تكون حالة من الغرور أو حالة من التراخي.

فالغرور كثيرا ما يكون بمثابة الجرار الذي يسحب البساط من تحت الأقدام ويقود إلى مزيد من الإخفاقات، لذلك كانت الحكمة الإسلامية «رب شهوة أورثت ذلا وانكسارا خيرا من طاعة أورثت عزا واستكبارا»، فكثير ما تقود الأعمال الصالحة أو الأعمال الحسنة أو الإبداعات صاحبها إلى محطة العزة بالإثم، التي هي بداية الإخفاق أو بداية قتل النفس.

فقد تقود حالات الإبداع وما يصحبها من مديح وإطراء إلى ما يشبه جنون العظمة، فإذا بالمبدع الذي طالما استرشد بآراء الآخرين واستفاد منها في إتمام حالة الإبداع التي وصل إليها، لا يرى إلا نفسه ولا يسمع إلا نفسه، يفعل ذلك وهو لا يدري أنه قد حرم نفسه من كثير من الاستشارات التي تعزز موقفه وتساعد على النجاح، لكنه في لحظة ما نسي نفسه وتقمص شخصية قارون، وقال إما بلسان مقاله أو بلسان حاله «إنما أوتيته على علم عندي».

أما حالة التراخي التي تضيع الفرص من أصحابها، فهي لا تختلف كثيرا عن حالة الغرور، لأنها غالبا ما تكون

مسبوقة بشيء من التشيع ، وكأن صاحبها قد اكتفى بما حققه من إنجازات ، رغم أنه ليس كذلك ، ولكنه وصل إلى مرحلة لا يستعذب فيها طعم الانتصارات ، أو على الأقل لم يعد لها نفس الطعم الذي كان يستشعره في الماضي ، وأعتقد أن صاحب هذه الشخصية في حاجة إما لصدمة توقظه أو إخفاق يعيده للحاجة بالإحساس بطعم الفوز والانتصار.

يبقى الإنسان طوال حياته رهين التعلق بآمال لا تنتهي وطموحات لا تتوقف وأحلام لا حدود لآخرها ، وعلى الرغم من تفاوت هذه الآمال والطموحات ، إلا أن القاسم المشترك بينها جميعا هو عدم القدرة على التوقف عن طلب المزيد ، مما يبرهن على أن نعمة القناعة التي يمنحها الله سبحانه وتعالى للبعض تعتبر درجة عالية جدا من درجات التحكم في النفس والسيطرة عليها ووضع لجم أخلاقية ومعايير قيمية ومكابح آمنة لجماح الطموح.

وإذا كان من حق أي إنسان أن يطمح نحو هدف ما يرغب في تحقيقه ، فإن المنطق يفرض عليه أن ينظر إلى هذا الهدف المنشود ومعرفة ما إذا كانت نفسه ترغب في تحقيق المزيد أم أن هذا الهدف سوف يعقبه مجموعة أخرى من الأهداف لن تكون بالنسبة له أقل أهمية عن هدفه السابق ، وهذه هي المشكلة الحقيقية التي تجر كثيرا من الناس إلى دوامة من الطمع الذي لا يتوقف والتعلق بطلب المزيد ، ولا يدري الإنسان بنفسه إلا وقد سرقتة الدنيا

حتى من حاجياته الخاصة وربما من حاجياته الضرورية.

هذه الحالة الإنسانية الخطيرة تتجلى بوضوح في حديث رسول الله ﷺ الذي جسد فيه ما يبلغ به الطمع بصاحبه، حيث يقول ” تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش“.. أتخيل وأنا أقرأ هذا الحديث الشريف كيف أخذ الطمع صاحبه إلى درجة جعلته يفقد حتى الإحساس بالألم عندما يشاك ولا يمنح نفسه فرصة لانتقاش هذه الشوكة ولا للتداوي منها، ثم يترك لنا النبي ﷺ تخيل ما يمكن أن يحدث لهذا الشخص الذي غررت به الدنيا من عواقب وخيمة من ألم وعطب ومرض هو بالفعل من تبعات هذه الشوكة.

عند هذا القدر ندرك فعلا أن القناعة كنز لا يفنى وأن الرضا بقسم الله هو عين الغنى كما قال ﷺ ” ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس“ وعند هذا القدر أيضا ندرك أن الغنى غنى النفس، أما الانسياق وراء أوهام الخيال، التي ربما تدفع صاحبها إلى كثير من الأخطاء وهو يقنع نفسه بمبررات واهية يركن إليها عندما يرتكب هذه الأخطاء معتبرا أن الغاية تبرر الوسيلة ومعتقدا أنه صاحب طموح مشروع وهدف منشود من حقه أن يصل إليه مهما كلفه ذلك من تنازلات ومهما سقط من ضحايا، لذلك في كثير من الأحيان يقع الإنسان ضحية نفسه فيفعل بها ما لم يفعله ألد أعدائه.

لكن أصحاب الفكر المستقيم لديهم نظرة أخرى للطموح تختلف كثيرا عن هذه النظرة، يحققون من خلالها طموحاتهم دون أن يدوسوا على أعناق الآخرين ودون أن يبنوا طموحاتهم على حقوق الآخرين ودون أن يسلبوا الآخرين طموحاتهم أو يضعوا العراقيل التي تعترضها، وعند هذا الحد فقط يمكن للإنسان أن يطمح وأن يطمع في تحقيق المزيد.

وهنا تنشأ معضلة أخرى تتعلق بما يعرف بالتنافس الاجتماعي، حيث من الممكن أن تولد المشكلة عند البعض أحقادا متبادلة، نظرا لتباين سقف الطموح، الذي يختلف من شخص لآخر.

المشكلة ربما لا تكمن في هؤلاء الاتكاليين أنفسهم، ولكنها تتعلق بأبنائهم الذين يشاهدون أمامهم أبناء الطموحين يرتعون في النعم، فتنموا بداخلهم أحقاد من الصعب التخلص منها إلا باعتدال أوضاع المجتمع، وهذا ما أراده الإسلام عندما دعا أتباعه إلى الوسطية والاعتدال المادي.

وإذا كان من حق كل إنسان أن يكون لديه طموحه الخاص به، ومن حقه أن يحلم بما يشاء، وأن يحلم بأشياء ربما تبدو في غير استطاعته، ومن حقه أيضا أن تكون لديه نعم كالتي عند غيره، ولكن ليس من حقه إذا لم تأت هذه النعم أو إذا تباطأت عليه أن يتمنى زوالها من الغير.

هذا هو بيت القصيد والذي يدعونا جميعا إلى مراجعة تعاطينا مع الطموح، الذي تحول من طموح إلى جشع ونهم ورغبة غير

مقننة في طلب المزيد، جاء نتيجة لكثير من العوامل والرواسب الاجتماعية والنفسية، وربما تكون جاءت في كثير من الأحيان كنتيجة طبيعية ورد فعل مباشر لتغير رتم الحياة اليومية.

وأيا ما كان السبب، فإن الملاحظ أن تغيرا واضحا طرأ على ما يمكن أن نسميه سقف الرغبات، حيث لم تعد الرغبة مرتبطة بالحاجة ولا بالإمكانات المتاحة، وإنما أصبحت كل الرغبات متشابهة وكل ينظر إلى ما في يد غيره وكل الناس يريدون كل شيء، ولم يعد هنا فارق بين الضروريات والكماليات، بل ربما يمكننا القول إن كلمة الكماليات بدأت تتلاشى من مصطلح مفرداتنا اليومية، لأن كل الناس أصبحوا ينظرون إلى الكماليات على أنها ضروريات لا غنى عنها، وهذه هي عين الكارثة، نعم هي كارثة، لأنها تدفع بالمجتمع نحو نمط استهلاكي بحت يرغب في شراء كل شيء ويسعى للحصول على كل شيء.

وخطورة هذا النمط من وجهة نظري تكمن في عدد من المحاور التي لا يقل أحدها خطورة عن الآخر، بداية من الآثار الاقتصادية السلبية المترتبة على شراء أو اقتناء ما لا يلزم، وهو الأمر الذي يترك مردودين كلاهما أسوأ من الآخر، أولهما يتعلق بإقبال كل الناس في وقت واحد على سلعة واحدة وهو الأمر الذي سيؤدي بالطبع إلى حدوث زيادة في الطلب ونقص في المعروض وهو ما يؤدي بطبيعة الحال إلى الغلاء والاحتكار وغير ذلك من أمراض الاقتصاد الحديث، كما أن هذه السلع سوف

تكون أموالا راکدة عند غير المستفيدين بها ممن أقبلوا على شرائها بحثا عن الواجهة الاجتماعية أو رغبة في تقليد الغير أو حتى مجاراة لحال المحيطين به ، ومن المعروف اقتصاديا أن مثل هذا الركود سوف يؤدي إلى حدوث ما يشبه الخلل الاقتصادي سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات ، على مستوى الأفراد لأن الفرد سوف يتحمل ما لا طاقة له به من أجل شيء لا حاجة له فيه ، ولا يدري إلا بالديون أو الأقساط وقد تراکمت عليه ولا يجد لنفسه منها خلاصا .

أما على مستوى الجماعات ، فمن المعروف أن أي مبلغ من المال لا يتم استثماره بشكل مناسب من قبل الأفراد سوف يؤثر تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على عجلة الاقتصاد .

وبعيدا عن الدخول في تفاصيل اقتصادية دعونا نبحث عن الأسباب التي دفعتنا إلى هذه الحالة دعونا نراجع أنفسنا ونهج حياتنا بالكامل حتى نقف على الحقيقة أولا ثم نرى بعد ذلك إذا ما كان بإمكاننا الرجوع أم أن الوقت قد مضى وفاتنا قطار التصحيح .
